دراسات قصيرة في الأدب والتاريخ والفلسفة

- ٣ -

عبد الله بن المقفع

وكتاب كليلة ودمنة

تأليف

عمر فروخ

دكتور في الفلسفة
عضو المجمع العلمي العربي في دمشق
عضو جمعية البحوث الاسلامية في بومباي

الطبعة الثانية

بيروت
١٣٦٨ هـ = ١٩٤٩م

منشورات مكتبة منيمنة - بيروت

دراسات قصيرة في الأدب والتاريخ والفلسفة

— ٣ —

عبد الله بن المقفع

وكتاب كليلة ودمنة

تأليف

عمر فروخ

دكتور في الفلسفة

عضو المجمع العلمي العربي في دمشق

عضو جمعية البحوث الاسلامية في بومباي

الطبعة الثانية

بيروت

١٣٦٨ ﻫ = ١٩٤٩م

منشورات مكتبة منيمنة - بيروت

دراسات قصيرة في الأدب والتاريخ والفلسفة

- ٣ -

عبد الله بن المقفع

وكتاب كليلة ودمنة

تأليف

عمر فروخ

دكتور في الفلسفة
عضو المجمع العلمي العربي في دمشق
عضو جمعية البحوث الإسلامية في بومباي

بيروت

الطبعة الثانية

١٣٦٩ هـ - ١٩٤٩ م

منشورات مكتبة منيمنة - بيروت

مطابع الحسني

الكلمة الاولى

الى ابن المقفع وحده يرجع الفضل في وضع اسس الاسلوب الادبي الذي كتب به العرب منذ اوائل العصر العباسي.

لقد عرف العرب في جاهليتهم واسلامهم الاول كثيراً من اساليب التعبير عن الآراء والافكار: عرفوا الشعر وعرفوا الخطابة وعرفوا التوسّل، ولكن خصائص هذه الفنون، والقيود التي القيت عليها منعتها من ان تكون مطاوعة لجميع انواع البحوث. فظل الانتاج الفكري في العرب الى اواخر العصر الاموي مقصوراً على اوجه الحياة الفطرية، وظلت قوة التعبير عن الفكر متمثلة في الثقافة اللغويه.

على ان القرآن الكريم جمع اساليب العرب واستطاع معالجة النواحي الفكرية كلها بحرية وتعمق واستقصاء. ولكن العرب ـ على ما يظهر ـ لم ينقلوا اساليبه الى النواحي الدنيوية الخالصة والى الانتاج الفكري باطلاق.

فلما جاء ابن المقفع عمد الى جميع فنون التعبير عند العرب واستنار في ذلك بنور القرآن واستفاد من لغة التخاطب والتحديث في البيئات المثقفة، ثم اشتق من هذه كلها اسلوباً ادبياً هو الاسلوب الذي شق للعالم العربي، منذ اوائل العصر العباسي، طريق معالجة الموضوعات وتحليل المشاكل والآراء على ما نعرفه في اسلوبنا الى اليوم.

ع. ف.

الطبعة الثانية «اضيف اليها مختارات من كتاب كليلة ودمنة»
اول المحرم ١٣٦٩ = ٢٣ - تشرين الاول ١٩٤٩

٢ - ٢٠٠٠ - ١١ - ٤٩

عبدالله بن المقفع

(روزبه بن داذويه)

عبدالله بن المقفّع من الادباء الذين نجهل حياتهم الاولى والادوار التي مروا بها قبل ان يصبح لهم شأن ما . فكل ما نعرف عن حياة عبدالله الاولى انه فارسي الاصل لاشك في ذلك ، وان اباه كان يدعى داذويه(١) وكان الحجاج بن يوسف قد ولاه على خراج فارس . ثم ان داذويه هذا اتُهم في مال فضربه الحجاج بن يوسف بالبصرة على ذلك حتى تقفّعت يده — تشنجت ، تقلصت راحتها فارتدت اصابعها الى باطنها — فعرف منذ ذلك الحين بلقب «المقفع» .

اما عبدالله نفسه فقد ولد في حدود عام ١٠٦ للهجرة (٧٢٤ م) بقرية اسمها «جور» وهي مدينة فيروز اباد — كما تعرف اليوم — احدى مدن فارس ، فسماه ابوه يومئذ «روزبه» (٢) . وقد قالوا ان كنية ابن المقفع كانت — قبل ان يسلم — اباعمرو .
والظاهر ان روزبه هذا نشأ في فارس على نحلة المجوس ، ثم انتقل الى البصرة في

---

(١) يرد هذا الاسم في المراجع المختلفة على صور مختلفة داذويه ، ذادويه السنخ والاقرب الى الصواب ما اثبتناه ، فان الدال المهملة في الفارسية القديمة اذا كانت مسبوقة بالف لفظت ذالا معجمة نحو بغداد فانها تلفظ ايضا بغداذ .

(٢) روزبه كلمة مركبة من روز(نهار ، يوم)وبه(جيد جميل سعيد) ، وكانت في الفارسية القديمة تلفظ بكسر الباء . ولكن الفارسية الحديثة اضاعت الكسرة فصارت الباء تلفظ ممالة(بين الفتح والكسر) . ويما ان العربية الفصحى لاتعرف هذه الامالة فقد اصبحت الباء فيها مفتوحة .

اوائل صباه ، نعرف ذلك من اتقانه اللغة العربية ومن تذوق اساليب العرب ومن حسن توفيقه بين لغة المخاطبة ولغة الكتابة على ما سيأتي في موضعه من الكلام على خصائصه الفنية .

اما سبب انتقاله الى البصرة فلم يكن ، فيما نظن ، لان البصرة كانت مدينة تذخر بالعلم والعلماء والشعر والشعراء او بالفلسفة والمتفلسفين بل — في الاغلب — لانها المدينة التي يعمل فيها ابوه لولاة الدولة الاموية . اما استقراره فيها فيما بعد فراجع الى انها مدينة كبرى من مدن الدولة حيث تتوفر الاعمال ويسهل الدخول في خدمة الولاة والامراء . ويبدو لنا ان روزبه اثرى في اول ايامه اثراء مذكوراً ، يشهد لذلك فقرة وردت في عيون الاخبار لابن قتيبة (١ : ١ ٢٠) هي : كان ابن المقفع محبوساً في خراج كان عليه وكان يعذّب . فلما طال ذلك وخشي على نفسه تعيّن (١) من صاحب العذاب مائة الف درهم ؛ فكان (صاحب العذاب) بعد ذلك يرفق به ابقاء على ماله » . ولا ريب في ان امرأ ينكسر عليه مائة الف درهم من الخراج لرجل مثري . ولعل روزبه استعذب مال الدولة كما استعذبه ابوه داذويه من قبل ، ولكنهما عوقبا على عملهما .

*

والظاهر من المصادر ان روزبه « كتب » لداود بن يزيد بن عمر بن هبيرة ، وكان يزيد والد داوود امير العراق . فلما ظفرت الدعوة العباسية قتل المنصور يزيد وابنه داوود وقتل من كان معهما .

الا ان نجم روزبه لم يتألق الا بعد ان اتصل بعيسى بن علي عم الخليفة ابي جعفر المنصور ثم دخل في الاسلام على يديه . ولما اسلم روزبه تسمى « بعبدالله » وتكنى « بابي محمد » ، فاصبح منذ ذلك الحين يُعرف بعبدالله بن المقفع .

**

واما موت ابن المقفع فالمشهور فيه « قصة الامان » ، وذلك ان عبدالله بن علي «

(١) المقصود اخذ سلفة بربا « فائدة ».

عم المنصور ، خرج عليه . ولكن المنصور ارسل اليه ابا مسلم الخراساني فهزمه.
وخاف المنصور ان يثور عمه مرة ثانية فاحب ان يستقدمه – ليفتك به – او يأمن شره
على الاقل ، فيزعمون ان ابن المقفع نفسه – وكان كاتب عيسى بن علي ، اخي عبدالله
ابن علي وعم المنصور – هو الذي كتب كتاب الامان وبالغ في التأكيد والصراحة
حتى انه لم يدع مجالا لتأويل شيء منه الى ان قال فيه (على لسان المنصور) : «وان
انا نلت عبدالله بن علي او احداً مما اقدمه معه بصغير من المكروه او كبير او
الى احد منهم ضرراً سراً او علانية .... فانا نَفْيٌ من محمد بن علي بن عبدالله ...
وقد حل لجميع امة محمد خلعي وحربي والبراءة مني .. » الا ان هذا وحده لا يكفي
لان يكون سبباً لقتل ابن المقفع فان الامان هذا لا يرسل الا بعد ان يطلع عليه
الخليفة ويوقعه .

وقيل بل اتهم ابن المقفع بالزندقة فقتلوه من اجل ذلك . ولكن الزندقة كانت
في ذلك الحين تهمة ظاهرة ، فما السبب الحقيقي الذي قتل به ابن المقفع؟

قيل بل كان يسعى لقلب الدولة العباسية – مع بعض الفرس – لنقل الخلافة
الى العلويين .

وقيل ان ابن المقفع عرّض بالمنصور في كتاب كليلة ودمنة . والواقع ان كتاب
كليلة ودمنة تعريض بكل حاكم ظالم – في رأي بعض الناس ، والمنصور كان
كذلك – ولكن اثبات ذلك يحتاج الى تمحل بعيد .

فالسبب الحقيقي ، اذن ، لمقتل ابن المقفع كالسبب الحقيقي لنكبة البرامكة او
لمصرع ابي مسلم ، لا يمكن ان يكون واحداً بل يجب أن يكون «مجموعة» من الاسباب
السياسية البست ثوباً دينياً «من الزندقة» او غير الزندقة .

اما الصورة التي قتل عليها ابن المقفع فصورة تقشعر منها الابدان ، زعموا ان
سفيان بن معاوية الذي تولى قتله – وكان له مبغضاً وعدواً – امر بتنور فاسجر
ثم امر بابن المقفع فقطعت اعضاؤه واحداً واحداً والقيت في التنور وهو ينظر حتى
أتي على جميع جسده . وكان ذلك عام ١٤٢ هـ فيما رووا (٧٥٩ م) .

العنصر الشخصي عند ابن المقفع

من العبث ان نحاول جمع عناصر الشخصية عند ابن المقفع من كتاباته ، لان كتاباته لا تمثله ضرورة ، فابن المقفع كان اما ناقلاً — من لغة الى لغة — او جامعة للآراء يؤلفها في لغته . على اننا اذا رجعنا الى ما ذكره المؤرخون عنه ، واذا اعتبرنا الآثار الباقية من تآليفه وضح لنا طابعه الشخصي اتم الوضوح ، ورأينا فيه رجلاً حسن العقل لا شك في ذلك ، حسن الخُلق الى مدًى بعيد .

اما حسن العقل فنجده في ما يلي :

(١) الذكاء الفطري = اولى خصائص ابن المقفع انه رجل شديد الذكاء بلغ بصباه ما لم يبلغه غيره بكهولته . ان آثاره تدل على ذلك ، اضف الى هذا كله ما شهد له به المعاصرون . ثم ان عقل ابن المقفع كان اكبر من علمه * — على سعة علم ابن المقفع .

هذا الذكاء الفطري كَسَبَ ابنَ المقفع دهاء استطاع به ان ينتقل من الدولة الاموية الى الدولة العباسية وان يتقرب من اهل الدولتين على السواء وان يُفيد من ذلك كله مالاً عظيما . على ان ذكاء ابن المقفع خانه في آخر الامر ، لا لشيء الا لان المنصور كان يأخذ بالظنة ويقتل على التهمة ، ولم يكن عصر ابن المقفع خالياً من رجل يشي للخليفة ابي جعفر المنصور بابن المقفع او يختلق تهمة يلصقها به .

(٢) دقة الملاحظة = وابن المقفع ، بما يبدو من آثاره ، شديد الملاحظة دقيقها ، تراه — على قرب عهد العرب بالكتابة الفنية — يتناول الموضوعات المجردة في الاكثر والمحسوسة في الاقل فيجلوها ويسوق في اثناء معالجتها كل ما يمكن ان يعرض لها من مناسبة او استطراد وكل ما يتعلق بها من استفهام او اعتراض . وهو في كل ذلك يدل على قدرة عظيمة في فهم النفس الانسانية والروح الذي يسيطر على المجتمع الانساني بما لا مزيد عليه من الوضوح واستجماع الفكر وحضور البديهة . انه يكشف في

* ربما وقع بعض الناس على حكم يناقض هذا ، ولكن هذا اقرب الى حقيقة ابن المقفع .

مؤلفاته عن نواح يعتقد الانسان انها جدقريبة وجدبديهية ، ولكن اكتشاف هذه النواحي ومعالجتها بمثل هذه المقدرة والدقة هو الذي يدل على الذكاء الفطري وعلى تميّز ابن المقفع فيه من كثير من الناس.

(٣) سعة المعرفة — وابن المقفع واسع المعرفة بفنون كثيرة من فنون الاجتماع، فملاحظاته في آثاره تدل على ان الرجل عرف فنوناً كثيرة من العلم في مختلف نواحيه.

والذي ماز ابن المقع من أقرانه المعاصرين انه جمع المعرفة من ثقافتين يتقن لغتيها كل الاتقان : المعرفة بثقافة فارس الاولى وبالتالي ثقافة المشرق كله من طريق اللغة الفهلوية، ثم المعرفة بالثقافة العربية من طريق اللغة العربية ومن الحياة في البصرة ومن الاسلام.

اما ما يشار اليه من معرفته اللغة اليونانية فلا دليل عليه ولا شبه دليل. وقد يكون الرجل يشدو من لغة قوم ويفهم بعض ما يكتب فيها ويهتدي في كتب نحوها وفي قواميسها ثم لا يقال عنه « انه يعرف تلك اللغة ».

(٤) اتزان الرأي — ويعجبك من ابن المقفع اتزان الرأي ، فمع انه معجب بآرائه إعجاباً يجعلها تفرض نفسها على القارىء او يفرضها هو عليه — فانه قليل الدعوى، قليل التنويه بنفسه لا يميل في الحكم الى جانب من غير ان يتحفظ لما عسى ان يثب عليه من الجانب الآخر . ان ابن المقفع ينصحك باتزان الرأي في كل كتبه وفي « الادب الكبير » خاصة . ولكن لعلك تقول هذه منقولة من لغة غير العربية فاتزان الرأي للذي كتبها في لغتها الاولى ، فاليك هذه الجملة التي لا شك في انها لابن المقفع ، إنه يقول في آخر كتاب « الادب الكبير » :

« اني مخبرك عن صاحب كان اعظم الناس في عيني ، وكان رأسَ ما اعظمه عندي صغرُ الدنيا في عينه . . . ».

ان ابن المقفع هنا لا يقول عن صاحبه انه اعلم الناس! بل يقول انه اعظم الناس في عينه . ثم يعود فيقول « ان رأس ما اعظمه عندي... » مما لا يدع مجالا للمتورّد

ان يحاول نقض هذا الرأي ما دام ابن المقفع يقدم بين يديك ان الرجل الذي يتكلم عنه « صاحب له » وان صفاته التي ذكر كانت « عنده » عظيمة .

*

وكان في ابن المقفع — مما يتصل بذلك من قرب او بعـــد — مروءة صحيحة ظاهرة ، فقد كان حسن الوفاء لاصدقائه كريم الطبع في معاشرة سائر الناس .

اما حسن الوفاء لاصدقائه فظاهر في حوادث كثيرة اهمها «قصة طلب العباسيين لعبد الحميد الكاتب»، فقد ذكروا ان عبد الحميد وعبدالله كانا في بيت واحد حينما فجأهما الطلب بعبد الحميد . فاراد عبدالله ان يفدي صديقه بنفسه فيقع هو ضحية الانقلاب السياسي كيما يفلتُ عبد الحميد . اما كرم الطبع فباد في حوادث تذكر اتصاله باناس لم يكونوا اصدقاءه ولكنه خالقهم بخُلُق حسَن .

*

وهنالك صفات كسبها ابن المقفع من بيئته :

(١) حياة اللهو = كانت البصرة في صدر الدولة العباسية ميداناً للعلم والادب وميداناً للهو والباطل ، ولقد ركض ابن المقفع فرسه في الميدانين. جاء في الاغاني ان ابن المقفع كان ينادم مطيع بن اياس ووالبة بن الُحباب — استاذ ابي نواس في كل شيء — وغيرهما ممن عُرفوا بالبطالة والمجون ورُموا بالزندقة . ويظهر ان ابن المقفع كان يميل الى سماع الغناء وادمان الخمر —وكلا هذين عناصر من البيئة الفارسية الطارئة على البيئة العربية . وهنالك قصص تروى عن ابن المقفع فيهـــا ظَرف وفُكاهة وخفة روح . ولقد كان في ذلك كله مسرفاً فيما قالوا .

(٢) زندقته = وكان ابن المقفع في من رُموا بالزندقة — والزندقة يومذاك تهمة لا صلة لها باساس الدين ضرورة ، فيكفي ان يتساءل الانسان عن الغاية من فرض ديني حتى يرمى بالزندقة . ويكفي ان يكون مائلاً عن سياسة الدولة القائمة حتى يتهم بتلك التهمة .

والظاهر ان ابن المقفع لما اسلم بعد ان بلغ أشُدّه لم يستطع ان يتحرر من عقليته

القديمة وبيئته القديمة فظل يأخذ ببعض الآراء المجوسية ويوازن في قرارة نفسه — وظاهر اشاراته — بين وجوه الدين القديم ووجوه الدين الجديد . وكل ما نستطيع قوله هنا ان ابن المقفع ظل اكثر حياته مجوسياً ثم دخل في السنوات الاخيرة في الاسلام، ولكن عاش في بيئة مزندقة كالبصرة فوجدت التهمة اليه سبيلاً بعد ان خالف الفقهاء في كثير مما يعتقدون انه من الدين .

(٣) شعوبيته = ويتبع التهمة بالزندقة التهمة بالشعوبية — وهي تفضيل غير العرب على العرب — . وليس يستبعد ان يكون رجل فارسي كابن المقفع شعوبياً يرى فضل الفرس على العرب ، ولكن القصص والحوادث والتمحلات التي يذهب اليها المحدثون من المؤلفين بعيدة عن المنطق . قالوا ان ابن المقفع أعجبَ بالفتى البدْوي لم ير من الحضارة شيئاً، وهو ينظم الشعر الحكيم البديع البليغ. فزعموا انه يستكثر ذلك عليه .

وقالوا : سأل ابن المقفع جلساءه عن اعقل الامم فاقترحوا كل امة كالفرس والروم والصين والهند ... فذمها كلها ثم قال : بل العرب افضل الامم . فزعموا ان ذلك منه تقيةٌ وممالئة .

قد يكون ابن المقفع شعوبيا ، ولكن ليس في ما ترك ولا في ما روي عنه دليل ايجابي ولا دليل سلبي على ذلك ، ونحن لا يجوز ان نحكم إلا على آثار ما نرى .

(٤) الاشتراكية = وهذه تتبع الزندقة ولم تكن غريبة عن الفرس . ويظهر لنا ان ابن المقفع كان يَشْرَكُ احياناً بماله اناساً حُرموا المال . وكان مثل هذا معروفاً في البيئة العباسية بين اصحاب اللهو خاصة .

(٥) العداوة السياسية = لا ريب في ان العداء كان مستحكماً بين المنصور وبين ابن المقفع ، ولكنا لا نعلم من امر هذا العداء امراً صريحاً : هل كان العداء شخصياً بين الرجلين ام انه كان ابلغ من ذلك ، كأن يكون عداء من ابن المقفع نحو الدولة القائمة .

انتاج ابن المقفع وآثاره

يُنسب الى ابن المقفع انواع مختلفة من الانتاج ، ويُنسب اليه كتب كثيرة تضم ، فيما يرون ، اشياء من هذا الانتاج. ويحسن بنا هنا ان نقسم ذلك كله قسمين : الانتاج الاصيل كالشعر وعلم الكلام والترسل ، ثم الانتاج الدخيل وهو ما نقله ابن المقفع من لغة الفرس ، سواء علينا انقل ابن المقفع من ذلك الفكرةَ العامة دون النسق والاسلوب ام نقل الفكرة في نسقها واسلوبها .

أ) الانتاج الاصيل

(١) الشعر = ان الابيات النزرة المروية لابن المقفع لا تبرر عده في الشعراء المكثرين او المقلين، ولكن بما ان ابا تمام الطائي اختار له في « الحماسة » ثلاثة ابيات في الرثاء جيدة فاننا نذكر هنا صفات شعره . ان شعر ابن المقفع قليل جداً ولكنه جيد . ويظهر ان ابن المقفع لم يكن يحمل نفسه على قول الشعر ، ولم يكن يرضى كل ما يخطر منه بباله .

(٢) علم الكلام = عاصر ابن المقفع نشوء علم الكلام في الاسلام فلم يكن بِدْعاً ان يشتغل به . اما تعريف علم الكلام فيمكن ان يكون : « الدفاع عن العقائد الدينية بادلة عقلية واسلوب خطابي » .

ليس لدينا كتاب لابن المقفع في علم الكلام ، وليس في كتبه الموجودة شيء نسميه علم الكلام إلا على التوسع كقوله في باب الفحص عن امر دمنة : « وقد امر العلماء بالعفو عن الجاني والصفح عن المذنب ، ولكنهم قد نَهَوْا عن اغتفار الجرم العظيم والذنب الكبير» ،ومن اشياء اخرى مبثوثة هنا وهنالك. على ان الجاحظ اشار الى ابن المقفع فقال : «كان يتعاطى علم الكلام» ثم زاد على ذلك انه كان «لا يحسن منه لا قليلاً ولا كثيراً » ،واستشهد على ما ذهب اليه «برسالة الصحابة » لابن المقفع

وقال : ان ابن المقفع « جيد الحكاية لدعوى القوم » ، يعني انه يفهم ما يقال في علم الكلام ولكنه « رديء المدخل في الطعن عليهم » يعني قليل المقدرة على الابتكار فيه وعلى رؤية الحق والباطل منه .

(٣) الترسل — كان ابن المقفع كاتباً من كتّاب الدواوين كعبد الحميد بن يحيى ، فله رسائل سياسية ادارية وله ايضاً رسائل اخوانية في التعزية او المؤاخاة او التهنئة وما شاكل ذلك . ومع ان هذه الرسائل لا تبلغ من حيث الثقافة الفنية في طولها وفي الصناعة فيها وفي خصائصها اللفظية مبلغ رسائل عبد الحميد ، فانها من الناحية الفكرية لا تقل عنها بل ربما فاقتها . ولا بِدْعَ فابن المقفع بني شهرته على الناحية العقلية في الانتاج .

ب) الانتاج الدخيل

نعني بالانتاج الدخيل عند ابن المقفع ما يرجع في فكرته الاساسية وفي القسم الاوفر من مادته — لا في نسقه واسلوبه — الى مصادر مشرقية (هندية اوفارسية) في الاكثر او الى مصادر اغريقية (يونانية) في الاقل .

وهنا نأتي الى مشكلة من ادق المشاكل عند ابن المقفع : هل كان ابن المقفع ينقل من الفارسية الى العربية نقلاً حرفياً ، ام انه كان يكتفي باستقاء الفكرة من مظانها الفارسية ثم يلبسها ديباجة من اسلوبه العربي ويتصرف فيها بالحذف والزيادة وبالتبديل احياناً ؟

ان الاجابة على هذا السؤال اصبحت سهلة اليوم ، اذ ان الميزة التي تسود هذا النوع من انتاج ابن المقفع تدل بوضوح لا سبيل الى الجدال فيه ان ابن المقفع كان يستقي الفكرة الاساسية من مصدر فارسي (مثلاً) ثم يعالجها معالجة تتفق مع العقلية العربية وحاجاتها ، وفي اسلوب عربي خالص . اما الادلة على ذلك فسنتركها الى حين الكلام على تآليف ابن المقفع واحداً واحداً .

اولا : كتب الفلسفة = ذكر القطفي (١) ان عبدالله بن المقفع « اول من اعتنى في الملة الاسلامية بترجمة الكتب المنطقيه لابي جعفر المنصور ... ترجم له كتب ارسطوطاليس الثلاثة : قاطيغورياس وباري ارمينياس وانالوطيقا (٢) وذكر انه ترجم أيساغوجي تأليف فرفوريوس الصوري (٣) .

ويظهر ان ابن المقفع نقل كتباً في الفلسفة الطبيعية (٤) .

اما اللغة التي نقل ابن المقفع منها هذه الكتب فاللغة الفهلوية لا اليونانية على ما يراه اكثر مؤرخي الفلسفة — بعد ان كانت هذه الكتب قد نقلت من قبل من اليونانية الى الفهلوية .

ثانياً : كتب السلوك = لو راجعنا جميع ما ينسب لابن المقفع — سوى كتب المنطق والطبيعة — لوجدنا انا ترجع الى موضوع واحد في اساسه : ترجع الى « السلوك والمخالقة » بين طبقات الناس المختلفة . ان ابن المقفع يريد في بعض هذه الكتب ان يثقف الملوك والامراء (كما في كليلة ودمنة وفي خداينامه) ، او ان يبسط القول في الادارة السياسية والعسكرية (كما في كتاب كليلة ودمنة ايضاً او كما في الادب الكبير والادب الصغير) .

ولا ريب في ان جميع هذه الكتب مشتق بعضها من بعض ، فالادب الكبير او الصغير ليس شيئاً اكثر من جمع الحكم المتفرقة في كتاب كليلة ودمنة بعد تجريدها من القصص والامثال ونسقها نسقاً جديداً وصوغها صوغاً مشابهاً . وفي كثير من الاحيان ترى ان قطعة ما بنصها التام موجودة في كليلة ودمنة وفي الادب الكبير . وكذلك رسالة الصحابة ليست شيئاً سوى اختيار ناحية خاصة من كليلة ودمنة (٥) ثم تطبيقها عملياً

---

(١) اخبار العلماء (ليبسك) ص ٢٢٠

(٢) Analytica, Peri Hermeneias , Kategorias – اي كتاب (فصل) المقولات والعبارة والقياس .

(٣) Eisagoge اي المدخل الى المنطق .

(٤) GAL, Suppl. I 253.

(٥) تشبه باب الاسد والثور وباب البوم والغربان .

على ادارة مقاطعات المشرق (في خراسان)، مع اعتبار الزمان والمكان — العرب والعجم، والعراق والشام، والاسلام والمنصور — بينما كليلة ودمنة يعالج الموضوع نفسه معالجة عامة تنطبق على كل مكان وزمان ..

من اجل ذلك كله سنسمي هذه الكتب كلها كتاب : كليلة ودمنة والكتب المشتقة منه .

١ — كتاب كليلة ودمنة = اشهر كتب ابن المقفع واعظمها وادلها على اسلوب صاحبنا ، واجلها في تاريخ الكتابة الادبية . وعلى هذا الكتاب تقوم شهرة ابن المقفع وبه يعرف مركزه وتُقاس قيمته .

وفي الكتاب نفسه — كما نعلم من النسخ الموجودة بايدي الناس — اربع مقدمات ثم خمسة عشر باباً تدور حول اسئلة يلقيها ملك من ملوك الهند يدعونه دبشليم على فيلسوف معاصر له يزعمون ان اسمه بيدبا . وقد اجاب بيدبا على هذه الاسئلة باجوبة مناسبة ثم ضرب على ما اجاب به امثلة واستخرج من كل شيء مغزى صرَّح به تصريحاً او تركه ملموحاً .

وفي هذا الكتاب يتعلم الامراء كيف يحكمون الرعايا وكيف يتقي بعضهم بعضاً وكيف يتعايش الناس فيما بينهم او يسيرون على طاعة اولي الامر منهم . وعمدة الكتاب ان ثمت مُثُلاً عليا ثابتة من طاعة السلطان وحسن الصداقة ومن الصدق في القول والعمل ، ومن ادب الضيافة . واليك ما تمثله ابواب الكتاب .

أ — باب الاسد والثور يمثل السلطة العليا في المُلك والحياة في البلاط وما يكون فيها من مكائد وسعايات .

ب — باب الفحص عن امر دمنة يمثل السلطة القضائية ..

ج — باب الحمامة المطوَّقة يدور حول امكان الصداقة بين المتنافرين في الطبيعة كالجرذ والحمامة

د — باب البوم والغربان يمثل السياسة الخارجية والحرب بين الملوك والامم ، واستطلاع اخبار العدو .

ه — باب القرد والغيلم ويمثل لنا الرجل الغبي تسنح له الفرصة فيضيعها ، والرجل الذكي يقع في ورطة فيتخلص منها بحسن عقله .

و — باب الناسك وابن عرس يمثل الرجل العجلان الذي لا يتروى قبل الاقدام على عمل ما .

ز — باب الجرذ والسنّور ويتناول التمييز بين من هم اصدقاء على الحقيقة ومن هم اعداء ; وهو استدراك على باب الحمامة المطوقة) .

ح — باب الملك والطائر فنزة ويدور على ان « ذوي الاوتار (١) » لا ينبغي ان يثق بعضهم ببعض .

ط — باب الاسد وابن آوى والناسك ويمثل الرجوع الى الصداقة بعد العداوة .

ي — باب اللبؤة والاسوار (الفارس الصياد) والشعهر ، ويمثل المتعفف عن الظلم والمتعظ بغيره .

ك — باب ايلاذ وبيلاذ وايراخت وفيه ان المُلك انما يثبت بالحلم والمشاورة .

ل — باب الناسك والضيف ويمثل الذي يترك ما في يـــده ليطلب غيره فلا يستطيعه فيضيع الامرين .

م — باب السائح والصائغ ويمثل صنع المعروف في غير اهله .

ن — باب ابن الملك واصحابه ويمثل ان كل ما يجري على الناس انما هو بقضاء الله وقدره .

س — باب الحمامة والثعلب ومالك الحزين ويمثل الرجل الذي يحاول ان ينفع الآخرين بآرائه ثم هو لا يعمل بها .

✲

---

(١) الاوتار جمع وتر : الثأر .

أمنقولٌ كتابُ كليلة ودمنة ام موضوع ؟

كثرت في ذلك جهود الباحثين واستقرت حول النظريات المختلفة الآتية :

(١) الكتاب منقول عن اللغة الفهلوية ، ان عبدالله بن المقفع اعلن في مقدمة الكتاب التي وضعها بنفسه ان الكتاب هندي الاصل ، نقله الفرس الى لغتهم ، ثم جاء هو فنقل هذا الكتاب من الفهلوية (الفارسية القديمة) الى العربية .

(٢) وقال آخرون ان الكتاب غير معروف في الآداب القديمة —بهذا الشكل— وما « دبشليم الملك » ولا « بيدبا الفيلسوف » ولا « فور ملك الهند » الا اعلام منسوبة الى زمن لم تكن فيه وامكنة لا تعرفها . ثم انّ ما في الكتاب من احتقاره للثور ومن آيات قرآنية كريمة واحاديث نبوية شريفة وآراء لا شك في انها من صلب الفقه الاسلامي ، يدل على ان الكتاب نشأ في بيئة اسلامية عربية محض . على ان الرغبة التي كانت آنئذ في الكتب المنقولة لا الموضوعة ، واتهام عبدالله ابن المقفع — فيما يقال — بكره ابي جعفر المنصور حملاه على ان ينحل كتاب كليلة ودمنة لبيدبا الفيلسوف الهندي وان يقول انه نقله من اللسان الفهلوي الى اللسان العربي .

(٣) على ان تتبع بعض الباحثين اثبت ان « القصص » الواردة في كتاب كليلة ودمنة معروفة باعيانها او باشباهها عند اليونان وعند الفرس وعند الهنود. وعلى هذا يكون عبدالله بن المقفع قد استقى «القصص» من الادب الفارسي والهندي ثم ساقها سياقاً هو اوجده، واستخلص منها العبر التي يريدها هو واضاف اليها او حذف منها . فيكون كتاب كليلة ودمنة اذن غير منقول عن اللغه الفارسية اذا اعتبرنا ان النقل انما هو وضع الآراء الاجنبية في لغة عربية مع التقيد بكل شيء . وكذلك لا يكون الكتاب مؤلفاً تأليفاً مستقلاً اذا اعتبرنا ان ذلك يقتضي الابتكار والاستقلال عن المجاري الاجنبية الخارجية . وهكذا يكون عبدالله بن المقفع —حسب هذه النظرية— قد استقى روح الكتاب من مصدر اجنبي ثم صاغه صياغة عربية تلائم البيئة العربية .

إننا اذا قبلنا النظرية الثالثة ، فما الادلة التي تقوم عليها ؟

لدينا ثلاثة انواع من الادلة :

(أ) الادلة التاريخية التي تقوم على انه ليس ثمت نسخة هندية او فارسية لكتاب يقابل كتاب كليلة ودمنة الموجود بين ايدي الناس والمعروف منذ العصر العباسي بهذا الاسم . ثم ان النسخ الهندية والفارسية وسواها كلها منقولة عن النسخة العربية . ما خلا نسخة سريانية ليس معها دليل على صلة بنسخة فارسية او هندية مماثلة .

بقي هنا ان نجرح قول القفطي مثلاً وهو ان ابن المقفع «ترجم الكتاب الهندي المعروف بكتاب كليلة ودمنة (ص٢٢٠) » بقولنا ان ذلك لا يعني اكثر مما اثبتناه في النظرية الثالثة .

وأما اكتشاف قصص في الادب الهندي والفارسي وفي الادب الياباني (١) مماثلة لبعض ما في كتاب كليلة ودمنة فلا تعارض النظريه الثالثة بل نقوم دليلاً عليها .

(ب) الادلة الناقضة التي تقوم على ورود آراء في كتاب كليلة ودمنة تتعارض مع الثقافة التي كانت سائدة في فارس او في الهند . من ذلك مثلاً اقتباس آيات قرآنية واحاديث نبوية واحكام فقهية لا شك في انها اسلامية محض ولا يمكن ان تكون فارسيه او هندية . خذ هذه الجمل مثلاً :

(١) ثم ان منزلة الانسان مقدورة عليه منذ الازل فلا سبيل له الا الرضى بها كيف كانت ... ما ارى الا الاجتهاد والمجاهدة بالقتال ، فانه ليس للمصلي في صلاته ولا للمحتسب في صدقته ولا للورع في ورعه من الاجر ما للمجاهد عن نفسه اذا كانت مجاهدته على الحق ... (باب الاسد والثور) .

(٢) وقد امر العلماء بالعفو عن الجاني والصفح عن المذنب ولكنهم قد نَهَوْا عن اغتفار الجرم العظيم والذنب الكبير ... لا تأخذه في الله لومة لائم ، وإلاّ فلا ملجأ

---

(١) راجع مقالا للدكتور عمر فروخ في الامالي ، السنة الثالثة ، العدد ١٧ ، مع قصة يابانية مماثلة تمام المماثلة لباب القرد والغيلم . وقد اوردت هذه المقارنة للمرة الاولى .

لي في ذلك الا الله. وهو الذي يعلم سرائر العباد وما تكن صدورهم..... وان العلماء قد قالوا: من اقترف خطيئة او اثماً ثم اسلم نفسه الى القتل من غير ضرورة تدعوه الى ذلك عفا الله عنه وانجاه في الآخرة من عذاب النار ... ولأن تعذب في الدنيا بجرمك خير من ان تعذب في الآخرة بجهنم مع الاثم ... وقد قيل انه من كتم شهادة ميت ألجم بلجام من نار يوم القيامة ... لان العلماء قالوا: ان الله تعالى جعل الدنيا سبباً الى الآخرة ومصداقاً لها لانها دار الرسل والانبياء الدالين على الخير الهادين الى الجنة الداعين الى معرفة الله تعالى ... لعلهم ان الظن لا يغني من الحق شيئاً ... قد علمت ان شهادة الواحد لا توجب حكماً (باب الفحص عن امر دمنة) .

(٣) قالت له : ألم تعلم انه ليس من الخير والشر شيء الا وهو مقدّر على من تصيبه المقادير (باب الحمامة المطوقة) .

(٤) ولا سيا ذوي البخل والحرص منهم، الذين ما بيوتهم وخزائنهم الا مدافن لاموال حبسوها فلا انتفعوا بها ولا تركوها للناس (باب البوم والغربان) .

هذه اراء وتعابير اسلامية لا غبار عليها معروفة اصولها في القرآن الكريم والحديث الشريف والفقه ، ولا يمكن ان تكون هندية او فارسية . اضف الى ذلك معاملة الثور معاملة لا تتفق مع احترام اهل الهند له وتقديسهم اياه .

(ج) ادلة التأليف . ان كتاب كليلة ودمنة ليس « وحدة تأليفية » فلم يؤلفه رجل واحد ولم يؤلف في زمن واحد ، نعرف ذلك من دراسة المقدمات الاربع خاصة ومن معارضة بعض محتوياتها ببعض (١) :

استخرج الدارسون ان كتاب كليلة ودمنة — على افتراض انه منقول — كان يتألف في الاصل الهندي من مقدمة وخمسة ابواب. ولكن في النسخة التي بايدي الناس اربع مقدمات وخمسة عشر باباً ، فلا بد اذن من ان يكون هنالك مقدمات

---

(١) راجع مقالا مفصلا للمؤلف في جريدة صوت الاحرار (بيروت) في ٢٣ كانون الاول ١٩٣٣ وفي ١٣ كانون الثاني ١٩٣٤ .

وابواب زادها ابن المقفع او انه رآها زائدة في النسخة الفهلوية . فعرضنا الآن ان نعارض بعض مضمون هذه المقدمات ببعض وان نعارض باب عرض الكتاب الذي هو لعبد الله ابن المقفع، لا شك في ذلك ،بسائر المقدمات وبابواب الكتاب كلها من حيث المادة والاسلوب .

(١) باب مقدمة الكتاب = « قدمها بهنود بن سحوان ويُعرف بعلي بن الشاه الفارسي ، ذكر فيها السبب الذي من اجله عمل بيدبا الفيلسوف الهندي.. لدبشليم ملك الهند كتابه الذي سماه كليلة ودمنة ... وذكر السبب الذين من اجله انفذ كسرى انوشروان برزويه... الى بلاد الهند لاجل كتاب كليلة ودمنة... وذكر فيها حضور برزويه وقراءة الكتاب جهراً ... وقد ذكر السبب الذي من اجله وضع بزرجمهر باباً مفرداً سماه باب برزويه الطبيب » .

فيتضح لنا اذن ان « باب برزويه » وضع بعد قرنين من حياة بيدبا المزعوم .ثم ان باب « مقدمة الكتاب » هذا الذي وضعه بهنود أو علي بن الشاه الفارسي يجب ان يكون متأخراً بضعة قرون أخر ، وان صاحبه مسلم لا يعيش في فارس،وهذا يتعارض مع المبدأ المقرر من ان كتاب كليلة ودمنة هذا مترجم .

ثم يذكر لنا بهنود هذا كيف وضع بيدبا – على ما بين بهنود وبيدبا من بعد العهد – كتاب كليلة ودمنة فيقول :

« ولم يزل يفكر في ما يعمله في باب الكتابْ حتي وضعه على الانفراد بنفسه مع رجل من تلاميذه كان يثق به . فخلا به منفرداً بعد ان اعد من الورق الذي كانت تكتب فيه الهند شيئاً كثيراً ، ومن القوت ما يقوم به وبتلميذه تلك المدة ، وجلسا في مقصورة وردّا عليهما الباب . ولم يزل هو يملي وتلميذه يكتب ويرجع هو فيه حتى استقر الكتاب علي غاية الاتقان والاحكام ، ورتب فيه خمسة عشر باباً ... فلما تم الحول انفذ اليه الملك ان قد جاء الوعد ، فما صنعت ؟ فانفذ اليه بيدبا أني على ما وعدت فليأمرني الملك بحمله بعد ان يجمع اهل المملكة لتكون قراءتي هذا الكتاب بحضرتهم » .

ومن هنا يتضح ان بيدبا وتلميذه وضعا الكتاب في عام واحد كانا في اثنائه منقطعَيْن

عن كل احد ، فكيف نفسر اذن مطالع الابواب : « قال دبشليم : قد سمعت هذا المثل فاضرب لي مثل ... » ? والملك لم يرِ الكتاب الا مرة واحدة !

ويذكر بهنود ان ابواب الكتاب خمسة عشر ، فعلى هذا يجب ان تكون المقدمة متأخرة الى زمن اصبح فيه الكتاب على ما هو بايدي الناس الآن .

(٢) باب بعثة برزويه = يصف هذا الباب كيف بعث كسرى انوشروان برزويه الطبيب الى بلاد الهند ليجلب كتاب كليلة ودمنة .

هنا يبدو لنا امورٌ منها ان مضمون هذا الباب مذكور في باب مقدمة الكتاب . أيكون هذا الباب قد وضع بعد مقدمة بهنود ، ام يكون بهنود قد اختصر باب بعثة برزويه ? ثم ان هذا الباب مملوء بالآراء الاسلامية ، فان هنالك على لسان برزويه الفارسي المجوسي هذه الاقوال :

« اما بعد فان الله تبارك وتعالى خلق خلقه برحمته ومنّ على عباده بفضله كرمه ورزقهم من العقل ما يقدمون به على اصلاح معايشهم في الدنيا ويدركون استنقاذ ارواحهم من العذاب في الآخرة ... الله تعالى ... الخالق المبدع الواحد الاحد » .

(٣) باب عرض الكتاب = لباب عرض الكتاب ، وهو من وضع ابن المقفع ، لا شك في ذلك ، اهمية مزدوجة : وجه منها يتعلق باسلوب ابن المقفع وسنتناول الكلام عليه عند بسط خصائصه اللفظية ، ثم وجه منها يتعلق بتاريخ كليلة ودمنة .

اما الاهمية التاريخية فهي ان ابن المقفع يعرض لبعثة برزويه بالتفصيل بعد ان كان بهنود بن سحوان قد اشار اليها في آخر مقدمته . ثم ان هنالك في باب عرض الكتاب ثمانية امثال جرى فيها ابن المقفع على غرار الامثال الواردة في سائر فصول كليلة ودمنة في مادتها ونسقها واسلوبها كقوله :

« فقال له رفيقه : ما مثلك الا مثل اللص والتاجر » ، فقال له : « وكيف كان ذلك ? » قال : « زعموا ان تاجراً كان في منزله خابيتان ... »

اضف الى ذلك كله ان هذا الفصل ولغته بمفرداتها وتراكيبها لا تخرج عما نألفه في فصول الكتاب الاساسية ، كباب الاسد والثور مثلاً .

(٤) باب برزويه = ينسب هذا الباب — الذي يبحث في حياة برزويه ورحلته الى الهند في طلب كتاب كليلة ودمنة حتى زمن ترجمته ثم قراءته بين يدي كسرى — الى الوزير بزرجمهر بن البختكان . ولكن هذا الباب يجري على صيغة المتكلم : «ان ابي كان من المقاتلة وكانت امي من عظماء بيوت الزمازمة ... ولما كانت نفسي تتوق الى ذلك ... فلما تحررت من تصديق ما لا يكون ولم آمن إن صدقته أن يوقعني في تهلكة عدت الى البحث عن الاديان والتماس العدل منها ... » فهذا يدله بلا شك على ان برزويه نفسه هو الذي كتب هذا الباب ، وما نسبته الى بزرجمهر الا لتشريف برزويه .

على ان في هذا الباب ما يمنع ان يكون مكتوباً بيد بزرجمهر او منقولاً عن لسان برزويه بما يخالف الدين الفارسي والفلسفة الفارسية كقوله : « واضمرت في نفسي ألا ابغيَ على احد ، ولا اكذّب بالبعث ولا القيامة ، ولا الثواب ولا العقاب ، وانْ لا إلهَ إلاّ اللهُ الفرد الصمد ، يكافىء على الخير بالخير وعلى الشر بالشر » .

أين مقدمة بيدبا

زعموا ان بيدبا وضع مقدمة ، ولكن اين مقدمته ؟ ان كل مقدمة من المقدمات الاربع التي عالجناها يستحيل ان تكون لبيدبا مما بيّنا ، ويصعب ان تنسب الى الرجل الذي نسبت اليه — ما عدا باب عرض الكتاب لعبدالله بن المقفع — لاسباب بيّناها وشرحناها . ثم ان باب مقدمة الكتاب لبهنود بن سحوان او علي بن الشاه الفارسي يصعب ان تكون لعلي بن الشاه الظاهري كما اراد بعض المستشرقين ، وجاراهم على ذلك احمد امين في ضحى الاسلام (١) مستندين الى ورود اسم علي بن الشاه الظاهري » في كتاب الفهرست (٢) .

(١) ١ : ٢١٧
(٢) المطبعة الرحمانية ٢١٨ .

فيتلخص من كل ما تقدم ان أسلوب كتاب كليلة ودمنة ، على ما هو اليوم بايدي الناس ، واحد في لغته ونسقه وخصائصه وميزاته — الا ان يكون هنالك بعض الآراء والجمل التي انسابت الى الكتاب في اثناء الاعصر المتطاولة ، ولا عبرة بذلك . ثم ان الكتاب في مجموعه يستحيل ان يكون ترجمة بالمعنى المتعارف لما فيه من آراء تخالف العقلية الهندية والفارسية ، فهو اذن موضوع في لغته واسلوبه ونسقه على اساس فكرة عامة وقصص كان بعضها شائعاً في جميع انحاء المشرق من فارس الى الهند الى اليابان .

٢ — كتاب الادب الصغير = مجموع حكم يسوقها ابن المقفع مجردة من القصص والامثال ، على خلاف اسلوب كليلة ودمنة ولكن ليس على خلاف غايته . وبعض هذه الاقوال مذكور في كتاب الادب الصغير وفي كليلة ودمنة معاً كالقطعة المشهورة : « ... ما الاخوان ولا الاعوان ولا الاصدقاء الا بالمال ... » اما كلامه فموجه الى العامة اكثر منه الى الحكام والولاة .

والكتاب مجموع من كلام الناس وحكم الشعوب — وربما من كلام ابن المقفع ايضاً — وسمي « الصغير » تمييزاً لحجمه لا تعيينا لمادته واهميته .

٣ — الادب الكبير = مجموع حكم اكبرُ من « الادب الصغير » وفيه كلام مبسوط على الصلة بين الحكام والرعية اكثر مما في الادب الصغير . ثم فيه امور تتعلق بالمخالقة بين الناس انفسهم .

ويظهر ان ابن المقفع احب ان ينظم آراءه هنا اكثر مما فعل في الادب الصغير فاعطانا « باب السلطان » و« باب الصديق » . لقد حاول فعلاً ان يضم بعض الآراء الى ما يشاكلها .

٤ — الدرة اليتيمة = يُروى ان لابن المقفع كتابين بهذا الاسم ، رَوَوْا ان « في احدهما حكما منقولة توجد عند حكماء كل امة مذكورة بالفضل » . ولعل هذا ما يطبع احياناً باسم الادب الكبير .

٥ — الدرة اليتيمة الثانية = وهي كلام « في شيء من الديانات » ، والكتاب مفقود .

٦ – رسالة الصحابة رسالة كتبها ابن المقفع كما يظهر بطلب من الخليفة المنصور، وقد ضمنها خططاً واساليب وآراء تعرّف المنصور بالامور الادارية والحربية، وخصوصاً فيما يتعلق باهل خرسان وأهل العراق والشام . وقد بسط ابن المقفع القول في صحابة المنصور – يعني خاصته وبطانته من بني العباس على الاخص – ولذلك تعرف برسالة الصحابة .

٧ – خداينامه = يُرجّح ان هذا الكتاب – كما يبدو من اسمه : خداينامه، او كتاب الملوك – انه تاريخ لملوك الفرس الاولين . والكتاب مفقود .

٨ – آيين نامه = كتاب يظهر من اسمه ومن بعض الشواهد المتفرقة في بعض الكتب انه كان يبحث في « التمدن الفارسي » . فان كلمة آيين معناها : العادات السائدة او الاحوال ، او الخطة او الرسم – يعني مـا يرسم للناس حتى يسيروا عليه .

*

هذا وان هنالك كتباً اخرى تنسب لابن المقفع ككتاب التاج مثلاً ، إلا انه بعضها مفقود وبعضها معتل النسبة ، ولا حاجة بنا هنا الى التبسط في الكلام عليها .

خصائص ابن المقفع الادبية

اذا كانت كتب ابن المقفع لا تدل على ميزاته الفكرية ضرورةً ، على اعتبار انها في الاصل آراء قوم آخرين ، فان هذه الكتب تدل بلا شك عـلى خصائصه الادبية على اعتبار ان ما فيها من الآراء مَسوق في لغته وجارٍ على اسلوبه . ولكن يجب ان نميز في كتابة ابن المقفع بين اسلوبين : اسلوب الترسل الذي لم يختلف فيه كثيراً عما عرفته رسائل استاذه وصديقه عبد الحميد الكاتب ، ثم الاسلوب المسيطر على كتاب كليلة ودمنة وعلى جميع الكتب المشتقة من كليلة ودمنة .

اما اسلوبه في رسائله فليس اسلوباً متميزاً بنفسه ، وانما هو اسلوب كليلة ودمنة – الذي سنتناول الكلام عليه بعد قليل – مضافاً اليه شيء من الصناعة التي صبغته

عصر ابن المقفع :- التحميد فيها قليل ، والصناعة قليلة فيها ، اذ يتكىء ابن المقفع كثيراً على الناحية العقلية من كل موضوع — شأنه في سائر آثاره — . وليس هنالك اثر شخصي بارز في هذه الرسائل .

*

واما اسلوبه في كتاب كليلة ودمنة والكتب المشتقة منه فهو متمثّل في ما يلي :

الخصائص المعنوية

١ — البحث والتحليل = يتناول ابن المقفع القضايا المجردة من عقلية او نفسانية او اجتماعية نحو الصداقة والعداوة او الكذب او السعي في طلب الرزق أو مخالقة الملوك ثم يحاول بسط البحث فيها والتحليل لها من طريق الاقناع المنطقي والخطابي . وهذا عامّ في كتبه كلها .

٢ — القصص والامثال = ويعتقد ابن المقفع ان البحث والتحليل خاص بالحكماء ولذلك تراه في كليلة ودمنة خاصة — على افتراض ان الكتاب من وضعه — يستعين بالقصص على ألسن الحيوان ، واحياناً على ألسن البشر ، وبالامثال حتى يقرّب تلك الامور العقلية من افهام العامة .

٣ — الاستطراد المحكم = ولابن المقفع (في كليلة ودمنة) طريقة خاصة في سرد القصص وضرب الامثال ، فهو يأتي بها متداخلة حتى يستحيل عليك — في كثير من الاحيان — ان تفهم القصة الاولى قبل ان تصل الى نهاية القصة الاخيرة . إنه يبدأ قصة فاذا سار فيها شيئاً يسيراً انتقل الى غيرها . ثم ينتقل على هذا الشكل الى ثالثة . ثم يتم الثالثة ثم الثانية ثم الاولى . وبهذه الطريقة يضطر القارىء الى قراءة القصص والتحليل ايضاً .

٤ — المغزى الملموح = والغاية من كليلة ودمنة خاصة تثقيف الناس من طريق العبرة في الآخرين : انه يكشف عن عيوب الناس ونقائصهم واخطائهم ثم ينتظر منك

ان تتعظ بذلك . وقد يستنتج لك العبرة من القصة او القصص المتعانقة ثم يحضك على الاخذ بما حَسُن منها والترك لما ساء . واحياناً يهمل هذا الحض ويكتفي بان تعرف انت لنفسك ما يَحسُن وما يسوء .

٥ – فرض الحكم = يقول ابن المقفع ما يقوله (في جميع كتبه) وهو واثق بنفسه وبصحة الاحكام التي يصدرها مع إيقانه بعجز البشر عموماً عن تنفيذها . فهو يقول في آخر كتاب الادب الكبير بعد ان يعدد صفات صديقه الذي يُعجبُ به : « فعليك بهذه الاخلاق ان اطقت — ولن تطيق — ولكنّ اخذ القليل خير من ترك الجميع » .

تأمل قوله : « عليك بهذه الاخلاق » ، فهذا فرض . ثم اعتبر قوله : « ان اطقت — ولن تطيق — » فهذا تعجيز او هو قلة ثقة بالبشر . ثم انظر في قوله : « ولكن اخذ القليل خير من ترك الجميع » ، فهذا اظهار للرحمة ، اذ يعتقد ان الناس على عجزهم يجدر بهم ان يتصفوا ببعض اخلاق صديقه .

٦ – حسن التبويب = وتمتاز جميع كتب ابن المقفع بحسن التبويب : انه اذا تناول بحثاً وفّاه حقه في مكانه لا ينتقل عنه قبل ان يعتقد انه استوفى تحليله . ثم انه ينتقل — في اثناء البحث الواحد — على اسلوب منطقي فيذكر اولاً ما يجب ذكره اولاً من غير تشويش .

فمن توفيته الموضوعَ حقه في مكان واحد وانتقاله منطقياً في البحث الواحد قوله في الادب الكبير : « انك ان تلتمس رضى جميع الناس تلتمسْ ما لا يدرك . وكيف يتفق لك رأي المختلفين ، وما حاجتك الى رضى من رضاه الجوْرُ والى موافقة من موافقته الضلالة والجهالة ? فعليك بالتماس رضى الاخيار منهم وذوي العقل ، فانك متى تُصِبْ ذلك تضعْ عنك مَؤونةَ ما سواه » .

٧ – الوضوح والغموض = لا شك في ان الفكرة العامة من جميع ما كتب ابن المقفع بَيّنة واضحة . وانك لا تقرأ له قصة او حكمة او مثلاً الا ادركت حالاً ما يقصد . على ان لابن المقفع — كما لسائر الكتاب — جملاً كهذه التي نقرأها في كتاب

الادب الكبير : « ليس احد أسوأ حالا من اهل القدرة الذين يفرطون باقتدارهم في غضبهم وسرعة رضاهم فانه لو وصف بصفة من يتلبس بعقله او يتخبطه المسّ من يعاقب في غضبه غير من اغضبه ويحبو عند رضاه غير من ارضاه لكان جائزاً في صفته » .

في هذه الجملة غموض منشأه : ١) طول الجملة ، ٢) تداخلها ، ٣) محاولة حصر معنى متشعب في كلمات معدودة ، ٤) انّ المعنى المتضمن هنا مجردٌ بعيد عن مستوى التفكير عند بعض الناس ، ٥) قد تكون الفكرة في اللغة الاصلية من جوامع الكلم التي يعبر اللفظ القليل فيها عن فكرة متشعبة ، فلما اراد ابن المقفع نقلها الى العربية تهيأ له المعنى المتشعب ولكن لم يتهيأ له اللفظ العربي الجامع .

على ان الانصاف في شأن الرجل ان نقول :

أ — ان هذا الغموض في جمل قليلة من جمل ابن المقفع لا يقدح في مقدرته فهو موجود في آثار كل كاتب .

ب — ان ابن المقفع بدأ نهضة كتابية وشق طريقاً جديدة في البحث ولم تكن قواعد العربية في النحو والبلاغة والمنطق بعدُ قد اكتملت ، ولا كانت القواميس قد وضعت بعدُ وضعاً يسهّل استعمالها . ولقد عرفنا ان كل اديب يبدأ نهضة — في النثر او الشعر — يشيع في آثاره غموض كثير ، خذ على ذلك مثلاً امرأ القيس وابا تمام وابن الفارض في العربية ثم هوميروس في اليونانية وشكسبير في الانكليزية وكورناي في الافرنسية ... فابن المقفع اذن معذور على بعض الغموض في كتاباته حتى لو كان هذا الغموض اكثر واشد مما هو عليه فعلاً .

الخصائص اللفظية

اول ما يلفت نظرنا من خصائص ابن المقفع اللفظية ان لغته سهلة واسلوبه بسيط ، اذ انه (فيما اعتقد) عمد الى لغة التخاطب في البيئة الراقية — في حلقات الادب ومجالس الامراء — فكتب فيها ما اراد . فلغة ابن المقفع (في كتاب كليلة ودمنة خاصة) شديدة الشبه بلغة التخاطب البسيطة ، خذ على ذلك قوله : « يقال انه كان رجل تاجر ، وكان

له شريك ، فاستأجرا حانوتاً وجعلا متاعهما فيه . وكان احدهما قريب المنزل من الحانوت فاضمر في نفسه ان يسرق عِدلا من اعدال رفيقه ... » .

فانت ترى انك اذا اهملت الاعراب في هذه الجملة لم تخرج فيها عن الكلام العامي المألوف . ومن المسلّم به ان لغتنا العامية الحاضرة اشد ايغالا في الفساد من اللغة التي كانت محكية في صدر الدولة العباسية . وهكذا يبدو لنا ان ابن المقفع كان شديد التأثر باللغة التي كانت محكية في زمنه قليل التأثر بالاساليب الديوانية التي عرفت في ايامه .

١ — الفاظه = ابن المقفع يتخير الفاظه ويقصدان تكون فصيحة لا غريب فيها الا بضع كلمات جزلة يحسن ابن المقفع استعمالها ونسيئه نحن اليوم ، نحو : رفيق (لطيف ، خفيف) وشُبّه (التبس واختلط) ومِرية (شك) وسقطة (غلطة) والسباخ (الارض المهمله) وخافر (ناقض للعهد) الا ما كان مثلا من مثل السَرجين (الزبل) وهو لفظ فارسي معرب ، او الجوّاس العادل (يقصد ابن المقفع به رجلاً يجلس مع القاضي عند الحكم) او بَهَتَ (افترى) . ثم ان هنالك كلمات فنية من الطب مثلاً نحو : اخلاط ، وناسور ، وافدع ، الا ان هذه قليلة جداً .

٢ — تراكيبه = اول ما يبدو لنا في ما كتب ابن المقفع ان جمله طويلة متعانقة ، اعني ان بعضها متداخل في بعض حتى انك لا تستطيع ان تفصّلها جملا قصيرة . وهو يستعين على ذلك بكثرة استعماله الروابط كاسماء الموصول نحو «هذا كتاب كليلة ودمنة . هو (مما) وضعته علماء الهند من الامثال والاحاديث (التي) ألهموا ان يُدخلوا فيها ابلغ (ما) وجدوا من القول في النحو (الذي) ارادوا» ... واحياناً يكثر من احرف العطف كقوله « ... اجتاز ببعض المفاوز فظهر له موضع آثار كنز ، فجعل يحفر ويطلب فوقع على شيء كثير من عين وورِقٍ (ذهب وفضة) فقال في نفسه ... »

وابن المقفع لبق في التصرف باحرف الجر ينسق بها جمله كقوله : « ثم ان العاقل اذا فهم هذا الكتاب وبلغ نهاية عمله (فيه) ينبغي (له) ان يعمل (بما) علم (منه) لينتفع (به) ويجعله مثالا لا يحيد (عنه) » .

ثم ان هنالك تراكيب «لبقة» تحمل طابع ابن المقفع فتُعرف به ويُعرف بها، من ذلك « ... ومن فعل ذلك كان خليقاً ان يصيبه ما اصاب ... فان خِلالاً ينبغي لصاحب الدنيا ان يقتنيها ويقبسها ... وقد يقال في امرين انهما يجملان بكل احد ... ويقال في اشياء يجب على صاحب الدنيا اصلاحها ... وقد قيل في امور من كنَّ فيه لم يستقم له عمل ... » .

وهنالك ايضاً شيء من التقديم والتأخير لا تقره قواعد الصرف والنحو كقوله : « انه كان ... رجلٌ شيخ له ثلاثة بنين » مكان « انه كان لرجل شيخٍ ثلاثة بنين »، او قوله : « فلامهم ابوهم ووعظهم على سوء فعلهم » مكان « فلامهم ابوهم على سوء فعلهم ووعظهم » . الا ان هذا واشباهه لا يضر لغة ابن المقفع، فهي مفهومة لا ابهام فيها ولا غموض ، اذا اردت ان تتفهمها تفهماً عاماً . اما اذا احببت ان تَرْجِعَ البَصَرَ فيها فانك ترى فيها مطاعن ومغامز غير قليلة .

ويُدهشك ألاّ تجد على تراكيب ابن المقفع شيئاً من العجمة ، مع ان بعض الدارسين يقول انها منقولة (مترجمة) ، وكلهم يقر بانها مستقاة من مصادر اجنبية .

والناظر في كتب ابن المقفع يرى انها بعيدة — في روحها وتراكيبها — عن البادية وان كثيراً منها حضري قريب من العامية (١) .

من اجل ذلك كله تستطيع ان تقول ان لغة ابن المقفع تضعف احياناً وتَرِكُّ، وان كانت على العموم اقرب شيء الى ما يسمى « السهل الممتنع » .

٣ — الايجاز والاسهاب = تُعرف كتابات ابن المقفع بالايجاز ، فهو يعبر عن المعنى الكثير بالالفاظ القليلة ويعالج الفكرة المتشعبة في الجملة القصيرة، ولا غرو فاكثرما يكتبه جملٌ من الحكمة او فنونٌ من الامثال . ولكنه احياناً يشعر ان معنى من معانيه قد يستغلق على فهم الرجل العادي فتراه حينئذ فقط يردد ذلك المعنى في تراكيب متشابهة كقوله: « وقد يقال ان العلم لا يتم الا بالعمل، وان العلم كالشجرة والعمل به كالثمرة .

(١) راجع مقدمة الخصائص اللفظية ص ٢٥ الى ٢٦

وانما صاحب العلم يقوم بالعمل لينتفع به ، وان لم يستعمل ما يعلم فليس به عالماً . ولو ان رجلاً كان عالماً بطريق مخوف ثم سلكه على علم به سمي جاهلاً » . اضف الى ذلك كله انه احياناً يضرب مثلاً او مثلين او يقص حكاية او اكثر زيادة في تبيان الفكرة الواحدة .

وهكذا نستطيع ان نوفق بين الايجاز والاسهاب عند ابن المقفع.

٤ — اوجه البلاغة = حينما عرّف ابن المقفع البلاغة بانها تلك «التي اذا سمعها الجاهل ظن انه يحسن مثلها » كان يقصد بذلك — من غير شك — الناحية العقلية المعنوية لا اللفظية. والمشهور عن ابن المقفع انه كان يترك قريحته على سجيتها وقلما تعمد التصنيع . على انه في رسائله خاصة كان يلجأ الى التحميد والتقسيم والموازنة والسجع والى الجناس والطباق ولكن من غير اغراق ، مثل قوله : «... ورب غلام ساء اهله بعد مسرتهم ،ورب جارية فرّحت اهلها بعد مساءتهم » .

اما في الادبين الكبير والصغير وفي كليلة ودمنة فالسجع مثلاً اندر ،الا في بعض مواقف التهكم ، كقوله في باب الفحص عن امر دمنة عند مخاطبة الخنزير : « واياك اعني ايها الاعرج المكسور الذي في وركه الناسور » ، او ما يأتي من سائر وجوه البلاغة سليقة وعفواً .

٥ = اسلوب ابن المقفع = يتضح من كل ما تقدم ان ابن المقفع يميل الى استعمال الالفاظ الفصيحة والى اختيار ما عَذُب منها . ثم يسوق ذلك في تراكيبَ تميل الى الطول مستعيناً على اطالتها باستعمال الروابط المختلفة من احرف الجر واسماء الموصول واحرف العطف . وهو لبق جداً في استعمال هذه الروابط مع ان لغته تضعف احياناً من اجل ذلك (وخصوصاً في كتاب كليلة ودمنة) . اما الصّناعة فابن المقفع قليل الميل اليها الا ان تجد له في رسائله خاصة شيئاً من الجناس والطباق ومراعاة النظير وشيئاً من التقسيم والموازنة وما اليها .

واسلوبه فوق ذلك في كليلة ودمنة خاصة قصصي تحليلي ، اما في رسائله فتحليلي خطابي جدلي . واما في الادبين الصغير والكبير فهو اميل الى الاخذ «بجوامع الكلم» ،

اعني بالكلمات القليلة التي تضم المعنى الكثير على نمط الامثال والحكم ، وربما مال هنا ايضاً الى التحليل وحاول الاقناع . ثم ان شخصية ابن المقفع بارزة في كل ما يكتب .

أثر ابن المقفع

واثر ابن المقفع في تاريخ العرب الثقافي عظيم جداً يبدو في نواحٍ مختلفة :-

١ — ان كتب ابن المقفع اول محاولة صحيحة مقصودة لمزج الثقافة العربية بثقافة اجنبية (فارسية في الاكثر وهندية في الاقل) .

٢ — عرف العرب عن طريق ابن المقفع ألواناً كثيرة من التمدن المشرقي . فاكتسبوا منها كثيراً في السياسة والادارة والاجتماع .

٣ — لقد اثرت كتابات ابن المقفع في الاتجاه العقلي ، ويكفي ان نذكر اربعة تأثروا بابن المقفع ايّما تأثر : اولهم الجاحظ شيخ كتّاب العربية في تشعب ما تناوله من الموضوعات ، فلقد تأثر الجاحظ بالتحليل والجدل اللذين اختطهما ابن المقفع ، وتأثر ايضاً باسلوبه .

ثم نعد المتنبي سيد الشعراء بلا منازع والذي لا يكاد اديب يستغني عن الاستشهاد ببعض ابياته . ان كثيراً من الحكم الواردة في ديوان المتنبي تجدها مستقرة في انتاج ابن المقفع ، وخصوصاً في كليلة ودمنة .

ثم هنالك الفيلسوفان العربيان ، الفارابي وابن سينا ، فانهما ترسّما خطوات ابن المقفع في فلسفتهما المدنية . ويكفي ان تقرأ رسالة أبي نصر الفارابي في السياسة وكتاب السياسة لابن سينا حتى تدرك الاثر البالغ الذي تركه ابن المقفع في الفيلسوفين وعلى الاخص فيما يتعلق بالولاة وبالاصدقاء ، فقد اغترفا من كتاب كليلة ودمنة ومن كتابي الادب الكبير والادب الصغير اغترافاً . ولكنهما نظّما ما اخذاه واجرياه على المنطق .

٤ — وابن المقفع اول من الف في العربية كتاباً في موضوع متعانق الفصول : إنه اول من اوجد « وحدة التصنيف »، اذ ليس لدينا كتاب يتقدم عصر ابن المقفع نحا فيه مؤلفه منحى الوحدة في التأليف . ولقد بقي العرب بعد ابن المقفع زمناً طويلاً قبل ان يتعودوا « وحدة التصنيف » هذه .

٥ — على ان اهم من هذا كله ان ابن المقفع اوجد « اسلوباً ادبياً » يعبر نفسه لجميع الموضوعات، وعلى الاخص تلك التي تحتاج الى بسط القول في الوصف والقصص والتحليل والبحث والموازنة بين الآراء ، والمضيّ في الجدل والاقناع .

مختارات

من كتاب كليلة ودمنة

باب عَرْض الكتاب

(او باب غرض الكتاب)

هذا الباب هو في الحقيقة « مقدمة الكتاب » الصحيحة ، تدور على الدافع الحقيقي لاخراج كتاب كليلة ودمنة — تأليفاً كان ذلك أم نقلاً — :

هذا كتاب كَليلَةَ ودِمْنَةَ . هو مما وضعته علماءُ الهندمن الأمثال والاحاديث التي ألهموا ان يُدخلوا فيها أبلغ ما وجدوا من القول في النحو الذي ارادوا . ولم تزلِ العلماء ، من كل أمة ولسان ، يلتمسون ان يُعْقَلَ عنهم ويحتالون لذلك بصنوف الحيل ويبتغون إخراج ما عندهم من العلل في اظهار ما لديهم من العلوم والحكم ، حتى كان من تلك العلل وضعُ هذا الكتاب على افواه البهائم والطير ، فاجتمع لهم بذلك خلالٌ . اما هم فوجدوا مُنْصَرفاً في القول وشِعاباً يأخذون منها ووجوهاً يسلكون فيها .

واما الكتاب فجمع حكمةً ولهواً . فاختاره الحكماء لحكمته والاغرارُ للهوه . والمتعلم من الاحداث ناشطٌ في حفظ ما صار اليه من امر يُرْبَط في صدره ولا يدري ما هوَ ، بل عَرَفَ أنه قد ظهر من ذلك بمكتوب مرقوم . وكان كالرجل الذي لما استكمل الرجولية وجد ابويه قد كنزا له كنوزاً وعقداً له عُقَداً استغنى بها عن الكدح فيما يعمله من امر معيشته فاغناه ما اشرف عليه من الحكمة عن الحاجة الى غيرها من وجوه الادب .

فاول ما ينبغي لمن قرأ هذا الكتاب ان يعرِفَ الوجوه التي وُضعت له والرموز التي رُمزت فيه ، والى اي غاية جرى مؤلفه فيه عند ما نسبه الى البهائم

واضافه الى غير مُفصح ، وغير ذلك من الاوضاع التي جعلها امثالا . فان قارئه متى لم يفعَلْ ذلك لم يدرِ ما أريد بتلك المعاني ولا أيّ ثمرة يُجتني منها ولا اي نتيجة تحصل له من مقدّمات ما تضمنه هذا الكتاب . وإنه ان كانت غايته منه استتمامَ قراءته والبلوغَ الى آخره دون تفهم ما يقرأ منه لم يَعُدْ عليه شيء يرجعُ اليه نفعه ....

وكذلك من قرأ هذا الكتابَ ولم يفهم ما فيه ولم يعلم غرضه ظاهراً وباطناً لم ينتفع بما يبدو له من خطه ونقشه . كما لو ان رجلًا قُدِّمَ له جوز صحيح لم ينتفع به الا أنْ يكسِرَه ويستخرجَ ما فيه . وكان ايضاً كالرجل الذي طلب علم الفصيح من كلام الناس ، فاتى صديقاً له من العلماء له علم بالفصاحة فاعلمه حاجتَه الى علم الفصيح ، فرسم له صديقُه في صحيفةٍ صفراءَ فصيح الكلام وتصاريفه ووجوهه . فانصرف بها الى منزله ، فجعل يكثر قراءتها ولا يقف على معانيها ولا يعلم تأويلَ ما فيها حتى استظهرها كلها . فاعتقد انه قد احاط بعلم ما فيها . ثم إنهُ جلس ذات يوم في مَحْفِلٍ من اهل العلم والادب فأخذ في محاورتهم ، فجرت له كلمة اخطأ فيها . فقال له بعض الجماعة : إنك قد اخطأت ، والوجه غير ما تكلمت به . فقال : كيف اخطىء وقد قرأت الصحيفة الصفراء وهي في منزلي ؟ فكانت مقالته هذه أوْجبَ للحُجّة عليه ، وزاده ذلك قرباً من الجهل وبعداً من الادب ....

وقد يقال ان العلم لا يتم الا بالعمل وان العلم كالشجرة والعمل به كالثمرة . وانما صاحب العلم يقوم بالعمل لينتفع به ، وان لم يستعمل ما يعلم فليس يسمى عالماً . ولو ان رجلًا كان عالماً بطريقٍ مَخوفٍ ثم سلكه على علمٍ به سمي جاهلًا .

واقل الناس عُذراً في اجتناب محمود الافعال وارتكاب مذمومها من ابصر ذلك وميّزه وعرَف فضل بعضه على بعض . كما انه لو ان رجلين احدهما بصير والآخر اعمى ساقهما الاجل الى حفرة فوقعا فيها كانا ، اذا صارا في قعرها ، بمنزلة واحدة . غير ان البصير أقل عذراً عند الناس من الضرير ، اذ كانت له عينان يبصر بهما وذاك بما صار اليه جاهل غير عارف .

وقد ينبغي للناظر في كتابنا هذا ألاّ تكونَ غايته التصفحَ لتزاويقه ، بل

يُشرِفُ على ما يتضمن من الامثال حتى يأتيَ عليه الى آخره ، ويقفَ عند كل مثل وكلمة ويُعمِلَ فيها رَويّته ، ويكونَ مثلَ ثالث الاخوة الثلاثة الذين خلّف لهم ابوهم المال الكثير فتنازعوه بينهم . فأما الاثنان الكبيران فانهما أسرعا في إتلافه وإنفاقه في غير وجهه . واما الصغير فانه عندما نظر ما صار اليه أخواه من اسرافهما وتخلّيهما من المال اقبل على نفسه يشاورها وقال : يانفسُ ، إنما المال يطلبه صاحبه ويجمَعَه من كل وجه لبقاء حاله وصلاح معاشه ودنياه وشرف منزلته في اعـــين الناس ، واستغنائه عما في ايديهم ، وصرفه في وجهه من صلة الرحم والانفاق على الولد والافضال على الاخوان . فمن كان له مال ولا ينفقه في حقوقه كان كالذي يُعَدّ فقيراً وان كان موسراً . وان هو أحسَنَ إمساكه والقيامَ عليه لم يَعْدَمِ الامرين جميعاً،من دنيا تبقى عليه وحمدٍ يُضاف اليه . ومتى قصد انفاقه على غير الوجوه التي حُدّت له لم يلبث ان يتلفه ويبقى عـــلى حسرة وندامة . ولكن الرأي ان أمسِكَ هذا المال فاني ارجو ان ينفعني الله به ويغني اخوتي على يديّ فانما هو مال ابي وما ابيهما . وإن أولى الانفاق على صلة الرحم وان بَعُدَت، فكيف باخوتي . فأنفذ فاحضرهما وشاطرهما ماله .

وكذلك يجب على قارىء هذا الكتاب ان يُديم النظر فيه من غير ضجر ، ويلتمس جواهر معانيه ، ولا يَظُنّ أنه نتيجة إنما هي الإخبار عن حيلة بهيمتين او محاورة سَبُع لثور ، فينصرف بذلك عن الغرض المقصود ويكونَ مَثَلُه مَثَلَ الصياد الذي كان في بعض الخُلُج يصيد فيه السمك في زورق . فرأى ذات يوم في عقيق الماء صَدَفة تَتَلألأ حسناً فتوهمها جوهراً له قيمة . وكان قد ألقى شبكته في البحر فاشتملت على سمكة كانت قوت يومه ، فخلّاها وقذف نفسه في المـاء ليأخذ الصدفة . فلما اخرجها وجدها فارغة لا شيء فيها مما ظن . فندم على ترك ما في يده ، للطمع ، وتأسف على ما فاته . فلما كان اليومُ الثاني تنحّى عن ذلك المكان والقى شبكته فاصاب حوتاً صغيراً ورأى ايضاً صدفـة سَنِيّة فلم يلتفت اليها وساء ظنه بها فتركها . واجتاز بها بعض الصيادين فاخذها فوجد فيها دُرّة تساوي اموالا ....

.... وينبغي للناظر في هذا الكتاب ان يعلم انه ينقسم الى اربعة اغراض :
احدها ما قُصِدَ فيه الى وضعه على ألسِنَةِ البهائمِ غيرِ الناطقةِ من مُسارعة اهل الهَزْل من الشبان الى قراءته فيستميل به قلوبهم ، لان هـذا هو الغرض بالنوادر من حيل الحيوانات .

والثاني اظهار خَيالات الحيوانات بصنوف الاصباغ والالوان ليكون أنساً لقلوب الملوك ويكون حرصهم عليه اشدّ للنُزهة في تلك الصور .

والثالث ان يكون على هذه الصفة فيتخذه الملوك والسُوقَةُ فيكثُرُ بذلك انتساخه ولا يبطل ، فيَخْلَقَ على مرور الايام ، ولينتفعَ بذلك المصور والناسخ ابداً والغرض الرابع ، وهو الاقصى ، مخصوصٌ بالفيلسوف خاصة .

باب الاسد والثور

وهو اول الكتاب

قال دَبْشَلِيمُ الملكُ لبيدبا الفيلسوف — وهو رأسُ البراهمة : اضرِبْ لي مثلًا لمتحابَّيْنِ يقطع بينهما الكذوبُ المحتال حتى يحملهما على العداوة والبغضاء .
قال بَيْدبا : إذا ابتُلِيَ المتحابّان بان يدخل بينهما الكذوب المحتال لم يلبثا ان يتقاطعا ويتدابرا ، وآفة المودة النميمة . ومن امثال ذلك انه كان بارض دَسْتاوَنْد رجلٌ شيخ له ثلاثة بنينَ ، فلما بلغوا أشُدَّهم اسرفوا في مال ابيهم — ولم يكونوا احترفوا حِرفة يكسبون بها لانفسهم خيراً — فلامهم ابوهم (ووعظهم) على سوء فِعلهم . وكان من قوله لهم : يابَنِيَّ ، ان صاحب الدنيا يطلب ثـلاثة أمور لن يدركها الا باربعة . اما الثلاثة التي يطلُب فالسّعة في الرزق والمنزلة في الناس والزاد للآخرة . واما الاربعة التي يحتاج اليها في دَرْك هـذه الثلاثة فاكتساب المال من احسن وجه يكون ، ثم حسن القيام على ما اكتسب منه ، ثم استثماره ، ثم انفاقه (في ما) يُصلح المعيشة ويُرضي الاهل والاخوان فيعودُ عليه نفعه في

الآخرة . فمن ضيّع شيئاً من هذه الاحوال لم يدرِكْ ما اراد من حاجته، لانه إن لم يكتسب لم يكن له مالٌ يعيش به ، وان هو كان ذا مال واكتساب ثم لم يُحسِن القيام عليه أوشَكَ المال ان يفنى ويبقى (هو) مُعْدِما . وان هو وضعه ولم يستثمره لم تمنعْه قلة الإنفاق من سُرعة الذّهاب ، كالكحل الذي لا يؤخذ منه إلا غُبار الميل ثم هو مع ذلك سريعٌ فناؤه . وان هو انفقه في غير وجهه ووضعه في غير موضعه واخطأ به مواضع استحقاقه صار بمنزلة الفقير الذي لامالَ له ثم لم يمنع ذلك ايضاً ماله من التلف بالحوادث والعلل التي تجري عليه ، كمحبِس الماء الذي لا تزال المياه تنصبّ فيه، فان لم يكن له مخرج ومتنفّس يخرج منه الماء بقَدْر ما ينبغي خرِب وسال ونزّ ، وربما انبثق البَثْقَ العظيمَ فذهب الماء ضياعاً .

وإنّ بَنِيَّ الشيخ اتعظوا بقول ابيهم واخذوا به وعلموا ان فيه الخيرَ وعوّلوا عليه . فانطلق اكبرهم نحو ارض يقال لها ميّون ، فاتى في طريقه على مكان فيه وحل كثير . وكان معه عجلة يجرها ثَوْران يقال لاحدهما شَتْربة وللآخر بَنْدبة . فوحِلَ شتربة في ذلك المكان فعالجه الرجل واصحابه حتى بلغ منهم الجهْد فلم يقدروا على اخراجه ، فذهب الرجل وخلّف عنده رجلاً يشارفه لعلّ الوحل ينشَف فيتبعه به .

فلما بات الرجل بذلك المكان تبرّم به واستوحش ، فترك الثور والتحق بصاحبه فاخبره بان الثور قد مات . وقال له ان الانسان اذا انقضت مدته وحانت منيته ، فهو وان اجتهد في التوقّي من الامور التي يخاف فيها على نفسه الهلاك لم يغن عنه شيئاً ، وربما عاد اجتهاده في توقيه وحذره وَبالاً عليه كالذي قيل إن رجلاً سلك مفازة فيها خوف من السباع — وكان الرجل خبيراً بوَعْث تلك الارض وخوفها .

فلما سار (الرجل) غير بعيد اعترض له ذئب من أحدّ الذئاب وأضْراها . فلما رأى الرجل ان الذئب قاصدٌ نحوه خاف منه ونظر يميناً وشمالاً ليجد موضعاً يتحرّزُ فيه من الذئب فلم يرَ الا قريةً خلف وادٍ ، فذهب مُسرعاً نحو القرية . فلما اتى الواديَ لم يرَ عليه قنطرة ، ورأى الذئب قد ادركه ، فالقى نفسه في

الماء - وهو لا يُحسِنُ السباحة - فكاد يغرق لولا ان بَصُر به قوم من اهل القرية فتوافعوا لاخراجه فاخرجوه وقد اشرف على الهلاك .

فلما حصل الرجل عندهم وأمن على نفسه من غائلة الذئب رأى على عَدْوة الوادي بيتاً مُفرداً فقال : ادخل هذا البيت فاستريح فيه . فلما دخله وجد جماعة من اللصوص قد قطعوا الطريق على رجل من التجار وهم يقتسمون ماله ويريدون قتله . فلما رأى الرجل ذلك خاف على نفسه ومضى نحو القرية فاسند ظهره الى حائط من حيطانها ليستريح مما حل به من الهول والإعياء اذ سقط عليه الحائط فمات .

قال الرجل صدقت ، قد سمعت هذا الحديث .

*

واما الثور فانه خلص من مكانه وانبعث ، فلم يزل في مرج مُخصب كثير الماء والكلأ . فلما سمن وأمن جعل يخور ويرفع صوته بالخوار . وكان قريباً منه أجمةٌ فيها اسد عظيم ، وهو ملك تلك الناحية ، ومعه سباع كثيرة وذئاب وبنات آوى وثعالبُ وفهودٌ ونمور .

وكان هذا الاسد منفرداً برأيه دون أخذٍ برأي احد من اصحابه ، فلما سمع خُواره خامره منه هيبةٌ وخَشية ، وكره ان يَشعُر بذلك جندُه . فكان لا يبرح ولا يَنشطُ بل يُؤتى برزقه كل يوم على يد جنده .

وكان في من معه من السباع ابنا آوى ، يقال لاحدهما كليلةُ وللآخر دمنةُ ، وكانا ذَوَيْ دهاء وعلم وادب . فقال دمنة يوماً لاخيه كليلة : يا اخي ، ما شأن الاسد مُقيما مكانه لا يبرح ولا ينشطُ خلافاً لعادته ؟ فقال له كليلة : ما شأنك أنت والمسألة عن هذا ؟ نحن على باب ملكنا آخذَينِ بما احب وتاركين ما يكره ، ولسنا من اهل المرتبة التي يتناول اهلُها كلام الملوك والنظر في امورهم . فأمسك عن هذا واعلمْ أنه من تكلف من القول والفعل ما ليس من شكله أصابه ما اصاب القرد من النجار .

قال دمنة : وكيف كان ذلك ؟

قال كليلة : زعموا ان قرداً رأى نجاراً يشُق خشبة وهو راكبٌ عليها . وكلما شق منها ذراعاً أدخل فيها وتداً . فوقف ينظر اليه وقد اعجبه ذلك . ثم ان النجار ذهب لبعض شأنه فقام القرد وتكلف ما ليس من شأنه : فركب الخشبة وجعل وجهه قِبَل الوتد وظهره قبل طرف الخشبة . فتدلى ذنبه في الشِق ، ونزع الوتد فلزم الشِق عليه ، فكاد يُغشى عليه من الالم . ثم ان النجار وافاه فاصابه على تلك الحالة فاقبل عليه يضربه . فكان ما لقِي من النجار اشدّ مما اصابه من الخشبة .

قال دمنة : قد سمعتُ ما ذكرت . وليس كل من يدنو من الملوك يقدرُ على صحبتهم ويفوز بقربهم . ولكن اعلم ان كل من يدنو منهم ليس يدنو منهم لبطنه ، فان البطن يُحشى بكل شيء . وانما يدنو منهم ليسر الصديق ويكبُت العدو . وان من الناس مــن لا مُروءة له ، وهم الذين يفرحون بالقليل ويرضوْن بالدون ، كالكلب الذي يُصيب عظماً يابساً فيفرح . واما اهل الفضل والمروءة فلا يقنعُهم القليل ولا يرضوْن به دون ان تسمو بهم نفوسهم الى ما هم اهلٌ له وهو ايضاً لهم اهل ، كالاسد الذي يفترس الارنب ، فاذا رأى البعير تركها وطلب البعير . ألا ترى ان الكلب يبصبص بذنبه حتى ترمي له الكِسرة من الخبز فيفرح بها وتقنعه منك ، وان الفيل المعترف بفضله وقوّته اذا قدم اليه علفُه لا يعتلفه حتى يمسح وجهه ويُتملق له . فمن عاش ذا مال وكان ذا فضل وإفضال على نفسه واهله واخوانه ، غير خامل المنزلة ، فهو وان قلّ عمره طويل العمر . ومن كان في عيشة ضيق وقِلة وإمساك على نفسه وذويه وكان خامل المنزلة فالمقبور أحيا منه . ومن عمل لبطنه وشهواته وقنِع وترك ما سوى ذلك عُدّ من البهائم .

قال كليلة : قد فهمت ما قلت فراجعْ عقلك واعلم ان لكل انسانٍ منزلةً وقدراً ، فان كان في منزلته التي هو فيها متماسكاً كان حقيقاً ان يقنع ، وليس لنا من المنزلة ما نحط به حالنا التي نحن عليها (؟) . ثم ان منزلة الانسان مقدورة عليه منذ الازل فلا سبيل له الا الرضى بها كيف كانت .

قال دمنة : ان المنازل مُتنازعة مُشتركة على قدر المروءة . فالمرء ترفعه مروءته



من المنزلة الوضيعة الى المنزلة الرفيعة . ومن لا مروءة له يحط نفسه من الرفيعة الى المنزلة الوضيعة . وان الارتفاع الى المنزلة الشريفة شديد والانحطاط منها هين ، كالحجر الثقيل رفعه من الارض الى العاتق عسِر ووضعه الى الارض هين . فنحن احق ان نروم ما فوقنا من المنازل وان نلتمس ذلك بمروءتنا . ثم كيف نقنع بمنزلتنا ونحن نستطيع التحول عنها .

قال كليلة : فما الذي اجتمع عليه رأيك ؟

قال دمنة : أريد ان اتعرّض للاسد عند هذه الفرصة لانه قد ظهر لي ان ضعيف الرأي قد التبس عليه أمره وعلى جنده ايضاً . ولعلي على هذه الحال ادنو منه فأصيبَ عنده منزلة ومكانة فيبتدرني بالكلام ، فاجيبه بما تقدحُه القريحة لعلها تُنتجُ بيننا نتيجة تؤدّي الى إظهار أمر مكتوم .

قال كليلة : وما يدريك ان الاسد قد التبس عليه امره ؟ قال دمنة : بالحسّ والرأي اعلم ذلك منه ، فان الرجل ذا الرأي يعرف حال صاحبه وباطن امره بما يظهر له من دله وشكله . قال كليلة : فكيف ترجو المنزلة عند الاسد ولست بصاحب السلطان ولا لك علم بخدمة السلاطين وآدابهم وآداب مجالسهم ؟ قال دمنة : ان الرجل الشديد القوي لا ينوء به الحمل الثقيل وان لم تكن عادته الحمل ، والرجل الضعيف لا يستقل به وان كان ذلك من صناعته . قال كليلة : فان السلطان لا يتوخى بكرامته فضلاء من بحضرته ، ولكنه يُؤثر الادنى ومن قرُب منه . قال دمنة : يقال ان مثل السلطان في ايثاره الافضل دون الادنى مثلُ شجر الكرْم الذي لا يعلق الا باكرم الشجر . قال كليلة : وكيف ترجو المنزلة عند الاسد ولم تكن دنوت منه من قبل .

قال دمنة : قد فهمت كلامك جميعه وتدبّرت ما قلت ، وانت صادق . لكن اعلمْ ان الذين لهم المنازلُ الرفيعة عند الملوك قد كانوا قبل ان يرْقَوا اليها ليست بحالتهم فيُقرّبون بعد البعد ويُدْنَون بعد التناءي . وأنا ملتمسٌ بلوغ مكانتهم بجُهدي . وقد قيل : لا يواظب على باب السلطان الا من يطرح الأنفة ويحملُ الاذى ويكظمُ الغيظ ويرفقُ بالناس ويكتمُ السر ، فاذا وصل الى ذلك فقد بلغ

مُرادة . قال كليلة : هبك وصلت الى الاسد ، فما توفيقُك عنده الذي ترجو ان تنال من المنزلة عنده والحظوة لديه ؟ قال دمنة : لو دنوت منه وعرفت أخلاقــه لرفقت في متابعته وقلة الخلاف له . واذا اراد امراً هو في نفسه صوابٌ زينته له وصبرته عليه وعرّفته بما فيه من النفع والخير ، وشجعته عليه وعلى الوصول اليه حتى يزداد به سروراً . واذا اراد امراً يخاف عليه ضرّه وشينه بصرّته بما فيه من الضرر والشين واطلعته على ما تركه من النفع والزين بحسب ما اجد اليه السبيل. وانا ارجو ان ازداد بذلك عند الاسد مكانةً ، ويرى مني ما لا يراه من غيري . فان الرجل الاديب الرفيق لو شاء ان يُبطل حقاً او يحقّ باطلًا لفعل ، كالمصور الماهر الذي يصور في الحيطان صوراً كأنها خارجة وليست بخارجة ، واخرى كأنها داخلة وليست بداخلة . فاذا هو عرف ما عندي وبان له حسن رأيي وجُودة فكري التمس إكرامي وقربني اليه .

المال : الغني والفقر

من باب الحمامة المطوقة

فقلت في نفسي : ما الاخوانُ ولا الاعوان ولا الاصدقاء الا بالمال . ووجدت من لا مال له اذا اراد امراً قعد به العُدْمُ عما يريده ، كالماء يبقى في الاودية من مطر الشتاء لا يمر الى نهر ولا يجري الى مكان الى ان يفسد و ينشف ولا ينتفع به .

ووجدت من لا اخوان له لا اهلَ له ، ومن لا ولد له لا ذكر له ، ومن لا مال له لا عقل له ولا دنيا ولا آخرة له. لان من نزل به الفقر لا يجد بُدّاً من ترك الحياة . ومن ذهب حياؤه ذهب سروره ، ومن ذهب سرورُه مقت نفسه ، ومن مقت نفسه كثُر حزنه ، ومن كثر حزنه قل عقله وارتبك في امره ، ومن قل عقله كانَ

اكثر قوله وعمله عليه لا له . ومن كان كذلك فأحر به ان يكون انكد الناس حظاً في الدنيا والآخرة .

ثم ان الرجل اذا افتقر قطعة اقاربه وإخوانه واهل ودّه ورفضوه واهانوه ، واضطرّه ذلك الى ان يلتمس من الرزق ما يغرّرُ فيه بنفسه ويفسد فيه آخرته فيخسر الدارين جميعاً . وان الشجرة النابتة في السباخ المأكولة من كل جانب كحال الفقير المحتاج الى ما في ايدي الناس .

ووجدت الفقر رأس كل بلاء وجالباً الى صاحبه كلّ مقتٍ ، ومعدن النميمة . ووجدت الرجل اذا افتقر اتهمه من كان له مؤتمنا ، وأساء به الظن من كان يظن به حسناً ، فان أذنب غيره كان هو موضعا التهمة .

وليس من خلّة هي للغنيّ مدح الا وهي للفقير ذم : فان كان شجاعاً قيل أهوجُ ، وان كان جواداً سُمي مبذّراً ، وان كان حليما سمي ضعيفاً ، وان كان وقوراً سمي بليداً ، وان كان صموتاً سمي عييًّا ، وان كان لسِناً سمي مهذاراً .

فالموت اهون من الحاجة التي تحوجُ صاحبها الى المسألة ، ولاسيما مسألة الاشحّاء اللئام . فان الكريم لو كُلف ان يُدْخل يده في فم الافعى فيخرجُ منه سُما فيبتلُعه لكان ذلك أهون عليه واحب اليه من مسألة البخيل ، حتى لقد جاء في قديم الاقاويل ان من ابتُلي بمرض في جسده لا يفارقه حتى يتسلط عليه ما هو اشد منه ، من الحاجة والفقر !

IN ARABIC

Ibn ul-Muqaffaᶜ

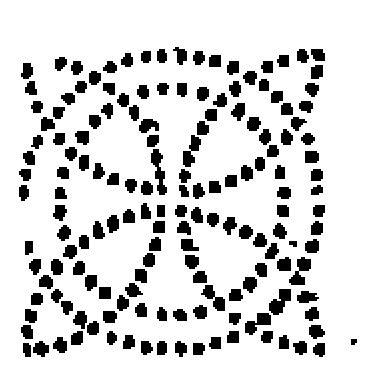
THE ORIGINATOR OF THE LITERARY STYLE IN ARABIC

By

Dr. Phil. Omar A. Farroukh

MEMBER OF THE ARABIC ACADEMY, DAMASCUS;

MEMBER OF THE ISLAMIC RESEARCH ASSOCIATION, BOMBAY.



Second Edition

BEIRUT 1949

Imp. Hassani

مطابع الحسني

